الفكر الإسلامي و الإنسان المعاصر
في رأي الطبيب عبد الله المنصوري التلمساني (1895- 1972)

د. أبوعمران الشيخ*

تساءل الطبيب عبد الله المنصوري[1] مدة طويلة عن الوسائل التي تساعد الإنسان المعاصر على إزالة الأزمة التي أصبح يتخبط فيها على الرغم من تقدم العلوم والتكنولوجيا. وقد ولد هذا المفكّر سنة 1895 بمدينة تلمسان[2] وتعلم بالمدرسة الرسمية التي تلقى فيها الثقافتين العربية والفرنسية وبعد تحصيله على شهادة البكالوريا بمدينة الجزائر غادر الوطن إلى مدينة "ليون" بفرنسا إلى أن تخرج من كليتها الطبية، وبدأ يزاول مهنته في مستشفى مدينة فاس بالمغرب حوالي سنة 1928 وأثناء إقامته هنالك إلى غاية 1948 عاش فترة من السياسة الاستعمارية في المغرب الشقيق، فاغتنم هذه الفرصة واهتم بالحركة الإصلاحية والفكر الإسلامي واطلع على "تفسير المنار" وعلى كتب أخرى، وفكّر كثيرا في أحسن طريقة يمكن أن تضمن للإنسان التقدم والسعادة.

وحوالي 1967 قرّر أن يؤلف كتابا في هذا الموضوع وشرع في إعداده وانتهى منه بعد سنوات، وصدر الكتاب سنة 1972 وكان

---

* رئيس المجلس الإسلامي الأعلى

صاحبه قد توفي بمدينة تلمسان قبل ذلك ببضعة أشهر، فلم يتيسر له أن يراه مطبوعا، فتوزع عدد من النسخ بمناسبة ملتقى الفكر الإسلامي الذي انعقد بمدينة تيزي وزو سنة 1973[3] ولكنه لم يعرض للبيع و لم يطلع عليه إلاّ القليل من الناس، ولهذا رأينا من المفيد أن نقدمه للقراء الذين لم يتمكنوا من التعرف عليه.

انطلق المؤلف من نظرية الإمام محمد عبده الذي رأى سعادة الإنسان في التوفيق بين العلم والدين وفي مقدمته الوجيزة لخص ما يمتاز به النصف الثاني من القرن العشرين في ظاهرتين: تقدم العلم وأزمة الشباب! فاهتم كل الاهتمام بالصراع القائم بين الثقافة العلمية والثقافة الروحية في العالم المعاصر الذي تغلبت عليه الآلة؛ وأراد أن يبيّن أنّ هذا الصراع لا وجود له في الفكر الإسلامي ولهذا يمكنه أن يساعد على إنقاذ الإنسانية في عصرنا الصناعي.

وينقسم الكتاب إلى ثمانية أجزاء: الأول يعرّف بالإنسان البيولوجي والإنسان الآدمي، والثاني يحدد تطلعات الإنسان، والثالث يعالج الأخلاق والتربية، والخامس يبحث عن أصول الداء وطبيعة الدواء، والسادس يرى النجاة في الفكر الإسلامي، والسابع ينظر في العلاقات بين الإسلام والغرب، والثامن والأخير يوجه نداء إلى الشباب المسلمين ليجمعوا ما بين العلم والإيمان.

– تطور العلم ونتائجه.

إنّ تطور العلم الحديث أدى شيئا فشيئا إلى تمزيق الإنسان واستعباده، وعلم الأحياء (البيولوجيا) لا يرى فيه إلاّ الجانب الحيواني

ويرفض وراثة العوامل الخلقية والروحية (ص3). وفي نظر العلماء الماديين يقتصر الإنسان على سلوكه النفسي ويتكون جسمه من عناصر كيمياوية فقط (ص4) والنفس ليست سوى ظاهرة الحياة ولا وجود للروح (ص23). إنّ فكرة التطور سيطرت على العلم الذي لا يتعدى التحليل الموضوعي للأشياء (ص19)، وأصبح العلم هو كل شيء في العالم (ص19). ويبذل الإنسان نشاطا كبيرا غير أنه لا يشتغل إلاّ بالحياة العملية، ولا يهتم بالآخرة (ص62) وصار المال من المعبودات (ص56).

وأعطى الغرب الأولوية المطلقة للعلم والتكنولوجيا واتخذ المادية مذهبا له (ص58). فاستعبدت الآلة الإنسان وسخرته لأغراضها (ص60) وأخضعته إلى الإنتاجية والسرعة، وظل لا يفكر؛ وفي النهاية دفع المجتمع الاستهلاكي الشباب إلى التمرد كما وقع ذلك في أمريكا وأوروبا وأقطار أخرى.

– هل يؤدي العلم حتما إلى السعادة؟

وانتشر الاعتقاد بأنّ العلم يستطيع أن يفعل كل شيء وأنه يضمن الرفاهية والسعادة للإنسان؛ حقا إنّ العلم ضروري ولا أحد ينكر ذلك، ولكنه لا يكفي وحده (ص5)، لأنه لا يمكن من الإجابة عن جميع الأسئلة التي تطرح علينا؛ وقد اعترف " **أوغست كونت** " بأنّ العلم يحدد بعض العلاقات الدائمة بين الأشياء ولكنه لا يكشف الأسباب الخفية (ص1). **"داروين"** هو الآخر قال: "إنّ سر البداية في جميع الأمور لا يمكننا معرفته"(ص9).

والواقع أنّ موضوع العلم محدود والمنهج التجريبي الذي يعتمد عليه لا ينطبق في سائر المجالات (ص19)؛ ويضاف إلى ذلك أنّ التقدم التقني والقوة المادية لا يواكبان حتما التقدم الأخلاقي كما تدل على ذلك تصرفات **"أتيلا"** و**"هيتلر"** (ص59). إنّ العلم يغرس في النفس مركب القدرة المطلقة (ص35)، وقد يؤدي إلى الهلاك كما فعلت القنبلة الذرية "بهيروشيمة" (ص39)، ولا يجدي العلم في وضع حد لفساد الأخلاق وتفشي الجريمة ونشوب الحروب (ص63).

– أزمة المجتمع المعاصر.

إنّ تقديس العلم تسبب في أزمة المجتمع المعاصر وتتجلى هذه الأزمة في أكثر من مظهر من مظاهر الحياة، فالأسرة قد تفككت من جرّاء عمل المرأة لأنها لا تستطيع أن تقوم بتربية أطفالها على أحسن وجه (ص49)، وتحولت التربية إلى عملية تطبّع (ص48)، والأطفال الذين حرموا من محبة الأسرة أصبحوا عرضة لانحرافات لا تتحكم فيها التربية الخلقية ولا المجتمع (ص52).

وقد انتشر فساد الأخلاق تقريبا في كل الأوساط الأوروبية (ص62)، وتسبب في انتشار المادية (ص119) ولم يتغلب عليها الدين المسيحي الذي حاد عن أصوله الشرقية؛ وعمّ شرب الكحول (ص67) وساعدت الآداب والفنون ووسائل الترفيه على التدهور الخلقي (ص68)؛ وتمزقت شخصية الإنسان بانغماسه في الماديات وفقدت التوازن الضروري بين تطلعات الفرد الطبيعية ومتطلبات المجتمع (ص123).

– ضرورة الإيمان.

ويبدو للمؤلف أنّ النجاة تكون في هذا التوازن ولهذا يجب أن يتخذ الإيمان مكانته في حياة الإنسان، لأنّ حاجته إلى العقيدة تفوق حاجته إلى العلم (ص20)، وشخصيته تتآلف من الجانب البيولوجي والجانب الديني (ص4). إنّ الجانبين متكاملان، وفي الطب مثلا لا يكفي العلم وحده وإنما يساعده كل من عقيدة المريض وإحسان الطبيب (ص16). ويلاحظ أنّ الشخص لا يكفيه الاعتماد على الحياة والإدراك الحسي فحسب بل إنه يفكر في مصدر الحياة والموت (ص17) وليس هو مجرد جسم وإنما له روح والعلم وحده لا يستطيع أن يفديها (ص11).

إنّ الإنسان صاحب أخلاق وروح والحيوان لا يتمتع بذلك (ص8)، وليس من المجدي أن نبحث عن هذه الميزة في الطبيعة أو في الحيوانات (ص2)، وإذا استطاع العلم أن يفسر السلوك النفسي فهو عاجز عن تفسير الحياة الروحية (ص23)، ويمكن للعالم أن يكتشف ما في الطبيعة وأن يستخرج قوانين الكون، ولا يخالفه المؤمن في هذه الاكتشافات ولكن هذا الأخير يعتقد أنّ هناك قوة مبدعة للكون (ص28) ويقين المؤمن يتفوق على يقين العالم (ص27).

– العلم والدين متكاملان.

إنّ العلم والدين لا يتعارضان في شيء بل هما متكاملان؛ ويعتمد المؤلف هنا على رأي الإمام عبده الذي يرى أنه ليس في التوحيد ولا في الأخلاق ما يخالف تطبيق العلوم في سائر المجالات مثل الطب والميكانيكا والسكن والتغذية والحياة العائلية والنظام الاجتماعي

والسياسي، غير أنه يتعين على الإنسان تجنب كل ما يضر بصحته البدنية والخلقية (ص44). إنّ للدين مجاله الخاص به ولذلك فهو لا يعرقل العلم؛ إنّ موضوع الأول "الحياة الداخلية" وموضوع الثاني "الحياة الخارجية" (ص38). والثورة التكنولوجية والصناعية هي الأخرى لا تعرقل إيمان الإنسان حيث لا يستطيع العلم إثبات العقيدة ولا نفيها (ص19).

وفي الواقع إنّ كلا من الدين والعلم يرمي إلى نفس الهدف وهو تكوين إنسان اجتماعي متوازن (ص34). إنّ الإنسان كلّ لا يتجزأ ومعنى ذلك أنه عالم ومؤمن في آن واحد (ص22) والعنصران اللذان يتألف منهما متضامنان: الجسم ينتمي إلى العلم والروح إلى الإيمان (ص25) ولهذا فإن الإنسان في حاجة إلى العلم كما هو في حاجة إلى الدين (ص33).

والأخلاق بلا دين لا يمكن تصورها (ص40)، والمحاولة التي تهدف إلى استبدالها بأخلاق عقلية ليس في إمكانها القضاء على الأخلاق الدينية (ص111)، لأن التربية الدينية ضرورية للفرد كما أنّ تكوينه العلمي ضروري (ص119). إنّ الدين هو الذي يعلمه كيف يميز ما بين الخير والشر، غير أنّ الإنسان حر في اختياره ومسؤول عن هذا الاختيار (ص42)، وهو قادر على إحداث الحضارة لأنه مسؤول (ص13).

– العلم والإسلام.

وفي نظر المسلمين ليس هناك تعارض بين العلم والدين (ص86)، إذ الإسلام يحث كثيرا على دراسة العلوم (ص118)، ويفسح المجال للعقل وهذا واضح في أكثر من آية إذ القرآن يحرض على النظر في الكون،

والحديث يأمر بالبحث عن العلم: (**اطلبوا العلم ولو بالصين**) ويفضل مداد العلماء على دم الشهداء؛ فالعالم إذن حر في أعماله إلاّ أنه يتعيّن عليه أن يجعلها تحت رعاية الله (ص89)، كما يجب عليه أن يكون متواضعا (ص87).

إنّ الإسلام دين وفلسفة عمل؛ إنه يحدد سلوك الإنسان ويضع أسسا للحضارة (ص92)، وفيما يتعلق بالأصول الخالدة فهو لا يحتاج إلى ثورة (ص91)، وإنما يرضى بالتطور في جميع الميادين الأخرى؛ بل يعارض الفردية بأخلاق اجتماعية مبنية على التضامن بين الأقارب وأفراد الأمة (ص96)، ولا يقبل نظام الطبقات (ص97) ولا استغلال الإنسان؛ وليس من الإيمان أن يشبع المرء وأخوه يتألم من الجوع (ص97)، ويحرم الإسلام الكحول ليحافظ الإنسان على صحته واحترام شخصيته وكرامته (ص98)، ويرفض الإسلام العنصرية (ص101)، ولا يحمل الشخص شيئا فوق طاقته: (***لا يكلف الله نفسا إلاّ وسعها***)[سورة البقرة، الآية 236]، وبنشر التربية والثقافة العامة ويستهدف الإسلام تكوين إنسان متمدن بالمعنى الصحيح (ص104) ويربط بين أفعاله وإيمانه (ص102).

– تخلف مجتمعنا ونهضته.

ولهذه الأسباب كلها قد أسس الإسلام حضارة مزدهرة جعلت الأفراد يستطيعون أن يحققوا ما كانوا يتطلعون إليه في مختلف المجالات (ص 93 وص110)، ومن ناحية أخرى ساهم الإسلام في تطوير أوروبا ونقل إليها العلوم في الوقت الذي كانت هذه القارة تعيش في الجهل والهمجية (ص110 و111) غير أنّ الغرب تقدم فيما بعد وأخذ مجتمعنا

يتدهور وبقي منحطا مدة طويلة وإنما ليس الإسلام هو السبب في تخلفنا التكنولوجي (ص120) الذي كانت له أسباب أخرى مختلفة، اكتفى المؤلف بالإشارة إلى البعض منها.

لقد أهملنا دراسة الطبيعة (ص90) وعانينا الكثير من الاستعمار والاحتلال؛ وظهر التصوف نتيجة انزوائنا على أنفسنا وانتشرت بيننا عدة انحرافات وخرافات (ص111). وعقد بعض المفسرين مفهوم الإسلام تعقيدا غريبا مع أنه يسير الفهم (ص81). وجاءتنا الحضارة الغربية بالتقدم العلمي وفلسفتها المادية (ص119) فتأثر بها مجتمعنا، واليوم يجب علينا أن نحترز من هذه الحضارة وخاصة شبابنا؛ فينبغي أن يرفضوا الفكرة الفاسدة والدخيلة التي تقوم بتعارض العلم والدين تعارضا مطلقا (ص116). وهنا يوجه المؤلف نداء إلى الشبيبة المسلمة لتجمع ما بين هذين العنصرين الأساسيين حسب مبادئ الإسلام (ص114)، وإذا كان من الواجب عليها التفتح على العلوم مهما كان منبعها فهي ليست في حاجة إلى الدعاية الأجنبية التي تحاول فصلها عن دينها، فعليها أن تقاوم هذه الدعاية (ص116).

إنّ النهضة الحديثة جعلت الشعوب الإسلامية تسترجع استقلالها، وكان إيمانها من أهم عوامل تحررها (ص111)، فعلى الشعوب أن تتمسك بدينها وأن تنشر العلوم (ص122) ذلك هو الشرط الأساسي لتطورها، وليس من الضروري أن يستسلم الدين لسيطرة العلم (ص113)، وهنا يلاحظ صاحب الكتاب أنّ التقدم الحقيقي ليس في التفوق المادي وحده[4]، إذ تطور العلم من أجل العلم قد يولد في النفس الأنانية و استبداد الآلة (ص45).

– الفكر الإسلامي وإنقاذ الإنسان المعاصر.

إنّ الفكر الإسلامي قوي ولا يزال قويا رغم العداوة التي تعرض لها (ص106)، وسر قوته في أنه جعل الإنسان يجمع بين تطلعاته الفردية والمصلحة العامة (ص123) والأمر الذي أحدث هذا التوازن هو التضافر بين العلم والدين ومن هنا يحصل الازدهار، لأن الإسلام يغلّب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة (ص124)، فوجد الحلول الملائمة لمشاكل الإنسان المعاصر؛ ومن ناحية أخرى تفتح الإسلام على الثقافات والأديان الأخرى، ولهذا يمكن للغرب أن يقتبس من الإسلام عدة فوائد.

وبهذا الصدد يستشهد المؤلف برأي الأستاذ **"أوليفيه لاكومب"**: "لعلّ أوروبا التي انسلخت عن المسيحية قد تأملت الموضوع الذي هو في صميم حياة الإسلام وتعلمت من جديد حقيقة كان عليها ألاّ تتجاهلها أبدا..."[5]. وقد أكد الإسلام رسالة الأديان السماوية السابقة (ص85): ***(ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه..)*** [سورة يوسف، الآية 111].

وأشار الإمام عبده إلى هذا المعنى عندما رأى أنّ التوراة والإنجيل والقرآن ثلاثة كتب متكاملة (ص125)، وتلتقي المسيحية خاصة مع الإسلام في أمور كثيرة (ص113)، والحوار معها ممكن إذا عادت إلى أصولها الشرقية وقاومت المادية، وقد ذكر الفارابي أنّ الحق واحد وليس هناك تناقض بين الأديان وإنما توجد اختلافات في الطرق التي تؤدي إليها (ص80).

تلك هي الأفكار الأساسية التي يحتوي عليها الكتاب ويمكن أن نناقش جوانب منها وأن نعترض على البعض الآخر وصاحبها لا يفرضها

وإنما يجتهد ليبرهن على آرائه معتمدا على التفكير والتجربة ولهذا تجنب التعقيد والتزم المنهج الواضح والأسلوب السهل وجرده من الزخرفة الأدبية، وقد اعتمد على الحركة الإصلاحية وخاصة على الإمام عبده ومدرسته من جهة وعلى الكتب العلمية وبالخصوص على كتاب **"اليكسيس كاريل "** [6] وأشار إلى موقف **" تياردي شاردان**[7] **"** الذي جمع بين الدين والعلم من جهة أخرى، ويمتاز الكتاب بطرح القضايا التي تتعلق بمصير الإنسان في عصرنا ويقدم الحلول التي يراها الكاتب صالحة، ونرجو أن يعاد نشر هذا الكتاب في الجزائر ليكون في متناول القراء المثقفين باللغة الفرنسية وقد وضعه صاحبه من أجلهم، ويمكن فيما بعد نقله إلى العربية لتعميم الفائدة.

الهوامش :

1. الطبيب عبد الله المنصوري، "الفكر الإسلامي في إنقاذ الإنسان المعاصر"، نشر بفاس سنة 1972 على نفقة وزارة التعليم الأصلي بمساعدة رابطة الجامعات الإسلامية.
2. اتصلنا بابن المؤلف الطبيب الأستاذ رشيد المنصوري (من مستشفى مصطفى باشا) الذي قدم لنا بعض المعلومات المتعلقة بحياة والده، فنشكره على مساعدته لنا.
3. وتمّ ذلك بفضل الأستاذ محمد الفاسي والأستاذ بالبشير.
4. ويعزز هذا الرأي ما ذهب إليه "جان فوراستيه" في كتاب *الآلية والرفاهية* قائلا: "ينبغي أن نفهم جيدا أن ميدان المعارف الإنسانية لا يقتصر فقط على المنهج التجريبي، وإذن فهو لا يضمن التقدم العلمي والتكنولوجي الرقي الإنساني حتما (أعني رقي الإنسان الشامل)".
5. " أوليفيه لاكومب": *الحكمة المسيحية وحكمة الشرق*، ويوجد هذا النص في كتاب الأستاذ "لويس غارديه" الإسلام دين وأمة، باريس سنة 1967، ص425.
6. "أليكسيس كاريل" له *كتاب الإنسان ذلك المجهول*.
7. " تياردي شاردان"، عالم مسيحي توفي سنة 1955 وله عدة مؤلفات علمية.